الشعر ذو الاعلام

— ٥ —

بقلم الاستاذ صادق الملائكة

البيت الخامس لربيعة الرقي

لوقيل للعباس يابن محمد قل ـ لا ـ وانت مخلد ماقالها

وهذا البيت من قصيدة رنانة قالها في مدح العباس بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وبعده :

ماان اعد من المكارم خصلة
الا وجدتك حمها أوخالها

واذا الملوك تسايروا في بلدة
كانوا كواكبها وانت هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة
حتى حللت براحتيك عقالها

ولهذه القصيدة خبر وذلك ان ربيعة لما مدح العباس بها بعث العباس اليه بدينارين جائزة وكان ربيعة يقدر فيها الفي دينار فلما نظر الى الدينارين كاد يجن غيظاً وقال للرسول خذهما فهما لك على ان ترد المرقعة الي من حيث لايدري العباس ففعل الرسول ذلك فاخذ ربيعة الرقعة وامر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحلى
لتجري في الكرام كما جريت

فهبها مدحة ذهبت ضياعاً
كذبت عليك فيها واقتربت

فانت المرء ليس له دخاء
كأني اذ مدحتك قد رثيت

ثم دفعها الى الرسول وقال له ضعها في محلها فردها الرسول واطلع العباس على الابيات فغضب وتوجه الى الرشيد وقال له ان ربيعة قد هجاني فاحضر الرشيد ربيعة وهم بقتله فقال له ربيعة والله لقد مدحته بقصيدة ماقال احد مثلها في الخلفاء وانشده اياها فقال الرشيد وكم اثابك عليها قال دينارين فغضب الرشيد على العباس والتفت اليه فقال سرأة لك اي حال قعدت بك عن اثابته الاموال فو الله لقد مولتك جهدي وما قطعت المادة عنك وان اصلك من قد عرفت ولكنك اتبعت نفسك فقعدت بك عن المكارم وفضحتك ثم قال يا غلام اعط ربيعة ثلاثين الف درهم زخلعة واحمله على بغلة وقال لربيعه بحياتي عليك لاتذكره بشعرك لاتعريضاً ولا تصريحاً وكان الرشيد قدهم بان يزوج ابن العباس ابنته ففتر عنه بعد ذلك لاطلاعه على بخله وشدة حرصه . ولم ينل العباس ذلك الشرف حتى مات في سنة ١٨٢ هـ

وربيعة هذا هو ابو سلامة ربيعة بن ثابت الرقي نسبة الى الرقة — بفتح اوله وتشديد ثانيه — وهي المدينة المشهورة على الفرات من جانبه الشرقي وكانت تعرف بالرقة البيضاء وفيها يقول ربيعة :

بالرقة البيضاء وفيها يقول ربيعة .

حبذا الرقة داراً اوبلد
بلد ساكنه ممن تود

مارأينا بلدة تعدلها
لاولا اخبرنا عنها احد

انها بربة بحريه سورها بحر وسور في الجدد
تسمع الصلصل في اشجارها هدهد البر ومكاء غرد
لم تضمن بلدة ماضمنت من جمال في قريش واسد

وأصل اللفظ كل ارض الى جنب واد ينبسط عليها الماء وجمعها رقاق وقيل الرقاق الارض اللينة التراب ويقول الاصمعي انها الارض اللينة من غير رمل .

وكان ربيعة من موالي بني سليم على الاشهر وقد وجدت محمد بن معاوية الاسدي يقول ليس ربيعة من موالي سليم بل هو من بني جذيمة بن مالك بن نصر بن قمين وفي نسبه كلام آخر وكان ربيعة ضريراً ومدح المهدي العباسي بعدة قصائد ثم كان الرشيد يأنس به وله معه ملح كثيرة وكان ربيعة من المكثرين المجيدين وانما اخمل ذكره واسقطه عن طبقته من الشعراء بعده من العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة

الشعراء وحسبه ان يقول ابن المعتز فيه كان ربيعة اشعر غزلا من ابي نواس وفي طم وفاته خلاف ويحدد ذلك مابين سنتي ١٨٠ و ١٩٣ هـ وبيت ربيعة الذي استشهد نابه وشرحناه منظور فيه الى قول الفرزدق في مدح الامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام وهو :

ماقال لا قط الا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وقد تناول الشعراء هذا المعنى فقال ابو محمد الخازن :

نعم تجنب لابوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء

وقال اسماعيل بن احمد الشاش :

ماقال لا قط منذ حلت تمائمه بخلا بها فوجدنا الجود في البخل

وقال بعضهم في قثم بن العباس

لم يدر ما لا و بلى قد درى فعافها واعتاض عنها نعم

وقال الاخر مادحاً :

وباشرت امري واعتنيت بحاجتي واخرت لا عني وقدمت لي نعم

وقال آخر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به نعم من فتى لا يمنع الجود قائله

وقد قال الزمخشري في احاجيه عند ذكره هذا البيت غامض مارايت احداً فسره وحكى يونس عن عمرو بن العلاء انه جر البخل باضافة لا اليه واورده ابو علي بنصب البخل وزعم انه مفعول ابي وان لا زائدة ، وحكى ذلك عن ابي الحسن الاخفش ثم قال واما بقية البيت فلم يفسره احد وهو مشكل . وقد فسره بعض القدماء فقال في معناه انه مدح لكريم ابى جوده ان ينطق بلا التي للبخل واستعجلت بجوده نعم اي سبقت نعم لا صادرة من غني لا يمنع والهاء في قائله تعود على نعم أي قائل نعم لا يمنع الجود . ثم اكثر الشعراء من القول في لا فقال احدهم يهجو بخيلا :

تعود من بخله قول لا فما يلفظ الدهر إلا بلا
وما هلل الله يرجو الثوا ب ولكن من حب لا هللا

وقال آخر في مثل ذلك :

فاذا سئلت تقول لا وإذا سألت تقول هات
تأبى فعال الخير لا تسقى وانت على الفرات
فلا تميل الى نعم او ترك لا حتى الممات

وقال شاعر في مدح لا :

اجتمع الناس على ذم لا غيري فاني موجب حق لا
وذاك اني قلت يوماً له تحب غيري سيدي قال لا

اما سليمان بن عبد الله بن طاهر فقد قال :

في كل شيء سرف يكره حتى في الكرم
ورب لا نقول لها افضل من الف نعم

ومن الحكم قول الآخر :

إذا قلت في شيء نعم فاتئد فان نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها لئلا يقول الناس انك كاذب

وقد وصل الينا قول بعض المتأخرين :

ومليح تكامل الحسن فيه لشقاء المحب سمى بلا لا
كل ما رام منه نيل مراد لا تراه يجيب إلا بلا لا

وأحسن الآخر إذ قال :

لا تقولي لا فمكتوب على وجهك المشرق نوراً نعم
بحروف كتبت من قدرة ما جرى قط عليها قلم
نونها الحاجب والعين بها طرفك الفتاك والميم الفم

وليكن آخر من نذكر قوله في لا ابن الوردي الذي قال :

تمت وابليس أتى بحيلة منتدبه
فقال ما قولك في حشيشة منتخبه
فقلت لا قال ولا خمرة كرم مذهبه
فقلت لا قال ولا مليحة مطيبه
فقلت لا قال ولا اغيد بالبدر اشتبه
فقلت لا قال ولا آلة لهو مطربه
فقلت لا قال فثم ما أنت إلا خشبه

وكما ورد ذكر لا في الشعر كثيراً فكذلك كان لها ذكر في النثر ومن أمثلة ذلك قول ابي الحارث ليحيى بن خالد البرمكي قبح الله لا كأنها منشجب من حيث لقيته ، وقول الكندي الفيلسوف قول لا يدفع البلا ، وقول نعم يزيل النعم وقول المهلب لابنه عبد الملك اياك والسرعة عند مسألة بنعم فان اولها سهل في مخرجها وآخرها ثقيل في فعلها واعلم ان لا وان قبحت فربما روحت وقول احد الحكماء لو لم يكن من فضل لا إلا انها افتتاح كلمة التوحيد لكان كافياً .